

الكلاسيكية بين الأمس واليوم دراسة معجمية نقدية

محمد نبيل النحاس الحمصي

أستاذ مشارك، قسم اللغة الفرنسية، كلية اللغات والترجمة،
جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية
(قدم للنشر في ١١/٩/١٤١٧هـ، وقبل للنشر في ١/١/١٤١٨هـ)

ملخص البحث. يهدف البحث إلى الوقوف على المعاني المختلفة التي تنطوي عليها كلمة «الكلاسيكية» وعلى تطورها الدلالي، منذ ظهورها في العصور القديمة إلى يومنا هذا، وذلك من خلال تعريفاتها في المعاجم الفرنسية بدءاً بمعجم الأكاديمية الفرنسية، الذي يرجع تأليفه إلى أواخر القرن السابع عشر، وانتهاء بأحدث المعاجم. ويبين كيف تطور مدلول الكلمة بفعل تأثيرات مختلفة وعلى الأخص في العصر الرومانسي.

تنقسم الدراسة إلى قسمين رئيسيين يعالج الأول كلاسيكية الأمس ويسجل التطور الدلالي الذي طرأ على الكلمة من العصور القديمة إلى أواخر القرن التاسع عشر. ويتناول القسم الثاني كلاسيكية اليوم ليسجل الدلالات الجديدة التي اكتسبتها اللفظة في المعاجم الحديثة ولدى عدد من مشاهير النقاد الذين تصدوا لهذه الظاهرة في مجال الأدب.

وخلاصة القول إن الكلاسيكية ليست مدرسة بقدر ما هي نزعة لها مقوماتها وثوابتها الخاصة التي تتميز بالعقلانية والمحافظة على قيم الأمة وموروثاتها، وهي لا تعني فقط كل ما هو تقليدي أو محافظ أو قديم، بل إنها من المكونات الأساسية للفكر الإنساني، شأنها في ذلك شأن الرومانسية. فهناك دائماً أدباء يغلبون العقل على العاطفة وآخرون تغلبهم العاطفة. أما من استطاع الموازنة بين القيمتين كان أقرب إلى الكمال.

المقدمة

إن الأدباء عامة، والفرنسيين منهم بوجه خاص، أحبوا دائماً الانضواء تحت لواء مفهوم مجرد يحمل في ثناياه ميولهم الفنية والأدبية ويلخص الأفكار والمبادئ الأساسية التي يريدون التعريف بها ونشرها بين القراء من خلال كتاباتهم. ربما كان ذلك استجابة منهم لحاجة معينة أو لذوق لمسوه لدى جمهور القراء أو حتى بلورة لنزعة أدبية سائدة. وقد أكثر النقاد وأفاضوا في الحديث عن المدارس الأدبية وراحوا يوزعون الأدباء والفنانين على مدارس أدبية وفنية ويعطون كل واحد منهم صبغة معينة وعلامة مميزة.

إن مصطلحات مثل عصر النهضة والباروك والكلاسيكية وعصر التنوير والرومانسية والواقعية وغيرهاتبلور الأفكار وتصوغ مشكلة العصور الأدبية مهما بلغنا من شك في دقة ما تحتويه تلك المصطلحات وما تتضمنه من تقويم وامتداد في المعنى. ولكن بالرغم من أن هذه المصطلحات أضحت، على ما يبدو، ضرورة من ضرورات التاريخ الأدبي وأن غيابها يعتبر دلالة على عدم اكتراث بالتجريد وبقضايا الأسلوب الذي يميز كل عصر من العصور الأدبية فإن الحدود الفاصلة بين هذه المفاهيم تبقى حدوداً وهمية. ثم إن كبار الكتاب لا يمكن أن يكونوا أسرى لمذهب من المذاهب حتى وإن كانوا في عداد من شاركوا في رسم خطوطه العريضة. ذلك أن قوة الابداع لديهم تحطم الأغلال التي يمثلها المفهوم الضيق للمدرسة الأدبية.

مفهوم الكلاسيكية القديم

موضوعنا هو المفهوم الكلاسيكي في الآداب عامة والآدب الفرنسي بشكل خاص وتطور هذا المفهوم بين الأمس واليوم. لن نخوض في ما سمي خطأ بالمدرسة الكلاسيكية لأنه لم توجد قط مدرسة أدبية بهذا الاسم ولم يحدث البتة وأن اتفق جماعة من الأدباء على تأسيس حركة أو مدرسة أدبية لها مبادئ ومواصفات وسمات ما يسمى اليوم بالمدرسة الكلاسيكية. وإذا أخذنا الآدب الفرنسي مثالا على ماتقدم لوجدنا أن بوالو (Boileau)، عندما قام بوضع، أو على الأصح باستخلاص أسس ومقومات الآدب الكلاسيكي في كتابه فن الشعر L'Art poétique الصادر في الربع الأخير من القرن السابع عشر، كان كل من كورني وموليير وراسين (Corneille, Molière et Racine) وغيرهم قد فرغ من نشر روائعه

دون أن يعرف أنه كلاسيكي أو أنه سيصبح كذلك فيما بعد . ولكن ما الفائدة من معرفة ذلك؟ إن في هذا تصديق لما قاله الناقد الإيطالي الشهير كروتشه (B. Croce) بأن الفكرة لا توجد حتى يتم التعبير عنها . لذلك لا يوصف بالكلاسيكي إلا الفنان والأديب الذي عبر في فنه وأدبه عن قيم أخلاقية وجمالية سائدة ومتعارف عليها في المجتمع الذي عاش فيه . سوف يتضمن موضوعنا عرضا سريعا للتطور الدلالي الذي عرفته كلمة كلاسيك Classique منذ ظهورها في العصور القديمة إلى يومنا هذا وذلك من خلال استعراضنا لتعريفاتها في عدد من كبريات المعاجم الفرنسية .

لقد تعرض مفهوم الكلاسيكية في القرنين الأخيرين ومنذ ظهور الرومانسية بوجه أخص إلى تفسيرات وتأويلات مختلفة إن لم نقل متناقضة في بعض الأحيان . فبينما تعني الكلمة في نظر البعض التقيد بالتقاليد والقيم والمحافظة عليها، رأى فيها آخرون رمزا للكمال والاتقان لاسيما وأن الأديب الكلاسيكي يعتمد على العقل دون الخيال سواء فيما يتعلق باختيار موضوعاته المستمدة من الواقع الاجتماعي وشخصياته الإنسانية أو في طريقة معالجته لها، الأمر الذي جعل النقاد يقعون في خطأ جلي عندما راحوا يركزون على التباين القائم، من وجهة نظرهم، وبين الكلاسيكية والرومانسية . فالأدب الكلاسيكي لا يخلو هو أيضا من المشاعر والأحاسيس والتأملات وغيرها من العناصر التي تميز عادة الأديب الرومانسي . وبالمقابل فإن ثمة أدباء رومانسيون برهنوا من خلال كتاباتهم على اتقان وكمال جديرين بأكثر الأدباء كلاسيكية إذ نلمس في مؤلفاتهم نهجا منطقيًا سليما يعتمد العقل إلى جانب الخيال .

في ضوء ما تقدم، هل يرمز الأدب الكلاسيكي في بلد ما إلى فترة معينة أم أن الكلاسيكية ماهي الا ظاهرة أدبية يمكن أن تظهر في كل فترة من فترات التاريخ الأدبي وتطبع مؤلفات هذا الأديب أو ذاك . بعبارة أخرى هل تشير الكلاسيكية إلى عصر أدبي ولى وانقضى ولا يمكن أن يظهر من جديد أم أنها تعبر عن قيم جمالية ثابتة يمكن أن تتصف بها مؤلفات وأعمال العديد من الأدباء في أي وقت كان؟ وهل يكفي أن يلتزم الأديب أو الفنان بقواعد معينة ثابتة في الانشاء والأسلوب كي يصبح جديرا بلقب كلاسيكي أو اتباعي كما يقول البعض . ثم هل يعتبر هذا اللقب رمزا للجودة أم أنه يحط من قيمة صاحبه؟

في الحقيقة، إن تحديد مدلولات كلمة كلاسيكي ليس بالأمر السهل لأنها تتحدى كل دقة شأنها في ذلك شأن كل الكلمات العامة والمبهمة التي تدل على عصر أو حقبة أدبية، على قيم جمالية وجماعة من الأدباء يسعون وراء هدف واحد.

ولكن إذا كان من الصعب تحديد المدلول الحقيقي للكلمة فإن تتبع التطورات التي مرت بها أمر أقل صعوبة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن كل الآداب العالمية عرفت كتابا كلاسيكيين بدءا من أدب الاغريق والرومان. وهذا الأدب هو الأدب الكلاسيكي الحقيقي الذي تتفق جميع اللغات الأوروبية على كلاسيكيته أو بعبارة أصح على مدرسيته، لأنه كان مصدر إلهام للآداب الأوروبية برمتها. أما الكلاسيكية بمعنى مجموعة أدباء أدركوا أنهم يسعون لهدف مشترك وحملت مؤلفاتهم قيما جمالية وعملية واحدة أو على الأقل متشابهة فلا تنطبق في نظرنا إلا على فرنسا وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر على وجه التحديد.

الكلاسيكية الفرنسية

إن الكلاسيكية الفرنسية مرحلة أساسية في تاريخ الأدب الفرنسي لدرجة أن كل من جاء بعدها من فولتير (Voltaire) إلى ستندال (Stendhal) وهيجو (Hugo) وجيد (Gide) وغيرهم كثر، وصف أدبه وحدد مكانته تبعا لهذه الظاهرة الجماعية التي تمثلها الكلاسيكية، سواء للنيل منها أو لاستخلاص دروس وعبر لاتزال صالحة إلى يومنا هذا. وقبل الخوض في مدلولات الكلمة، نسوق هنا رأيين تقديدين في الكلاسيكية الفرنسية كعصر أدبي طواه الماضي، يظهر أن أهميتها في تاريخ الأدب الفرنسي وإن انطوى الرأي الثاني على شيء من الغلو والمبالغة واتسم بمسحة تشاؤمية.

يقول بول هازار (Paul Hazard) في كتابه «أزمة الوعي الأوروبي La crise de la

conscience européenne» [١]:

«لو شعرت العاملة المجدة والمجيدة بأنه بات بإمكانها التوقف عن العمل والخلود إلى الراحة لأنها قدمت أخيرا عملا رائعا فريدا لكان ذلك في العصر الكلاسيكي. فهل كان بإمكانها أن تخلق أشكالا أكثر جمالا وروعة وديمومة؟ إنها بحق أشكال جميلة ودائمة النضارة لدرجة أنها لاتزال تثير الإعجاب والدهشة إلى يومنا هذا. وهي تستحق أن تطرح كنماذج رائعة لأولادنا وأولاد أحفادنا. إن هذا الجمال يستدعي الطمأنينة وراحة البال في نفوس أولئك الذين أوجدوه.

لقد تمكنت الكلاسيكية من التوفيق بين حكمة القدماء وحكمة العصر فلم تهمل الأولى ومارست الثانية لتقدم للناس حالة من الصفاء والنقاء».

ويقول ج. م. بيرنار [٢]:

«لو سلمنا - ونحن مجبرون على ذلك - بأن الأدب بلغ أوج الكمال والتوازن في ظل لويس الرابع عشر لوجدنا أن الكلاسيكية هي قمة أدبنا الفرنسي . ويؤدي هذا الاعتراف إلى إقرار نتيجة حتمية لامناص منها وهي أنه لا توجد في أية لغة من لغات العالم قمتان أدبيتان على علو واحد . لذلك فقد حكم علينا ألا نتجاوز القرن السابع عشر وألا نكتب من بعده سوى شذرات قد يكتب لها أن تكون جميلة . لقد جاء دور الآداب الأخرى في أن تصبح كلاسيكية فتستلهم من أدب أثينا وتكمل مسيرة تطوره . أما نحن فلم يبق أمامنا سوى أن نموت بكرامة».

مدلولات كلمة كلاسيكية

وردت كلمة كلاسيكي Classique لأول مرة في كتابات أولوس جيلوس (Aulus Gellus) الكاتب الروماني الذي عاش في القرن الثاني بعد الميلاد . فقد استخدم في شذراته المعنونة «ليالي أتكا Noctes Atticae» عبارة «Scriptor classicus; non proletarius» كاتب كلاسيكي وليس من طبقة العمال . أي أنه استعار العبارة المستخدمة في تصنيف طبقات المجتمع الروماني لأغراض الضريبة في الدولة الرومانية واستعملها في تصنيف الكتاب إلى طبقات . وهذا يعني أن كلمة Classicus كانت تستخدم في اللاتينية الفصحى للدلالة على الطبقة العليا ، وعلى كل ماهو مميز ومفضل ويجب أن يكون قدوة يحتذى بها . وتطلق الكلمة أيضا على كل أديب أو كتاب يحظى بالاعجاب والتقدير . بهذا المدلول يعتبر فيكتور هيجو ، الأديب الرومانسي الفرنسي الشهير ، أديبا كلاسيكيا شأنه في ذلك شأن سوفوكليس (Sophocle) . كما تطلق على كل شيء يدخل في العادات والتقاليد لشدة ما يلقي من استحسان ورواج وتقبل . فنقول : ثوبا كلاسيكيا ورحلة كلاسيكية إلى إيطاليا وموسيقى كلاسيكية . فضلا عما تقدم ، تستخدم الكلمة في وصف كل مايت للعصور القديمة بصفة ، فيقال : فقه اللغة الكلاسيكي وعلم الآثار الكلاسيكية أي الإغريقية والرومانية .

أما في اللغة اللاتينية العامة فتطلق الكلمة لوصف كل أديب أو كتاب يصلح للمدارس أو لأن يكون مادة دراسية لأنه يقدم مادة جيدة تسهم في تنشئة الشباب تنشئة صالحة . ويبدو أن الكلمة لم تستخدم في العصور الوسطى ولكنها عادت إلى الظهور إبان عصر النهضة باللغة اللاتينية أولاً ثم باللغات المحلية . وما يثير الدهشة أن سيبيليه Sébillet نصح في كتابه «فن الشعر (١٥٤٨)» بقراءة الشعراء المجيدين من أمثال «شعرائنا القدامى ألان شارتييه وجان دي مون Alain Chartier et Jean de Mons» . والإشارة إلى هذين الشاعرين الفرنسيين من شعراء القرون الوسطى تدل على أن اصطلاح الكلاسيكية لم يكن يرتبط بالعصور الكلاسيكية القديمة فحسب ، بل كان يعني التميز والجودة والانتماء إلى طبقة كبار الشعراء .

في معجمه الصادر سنة ١٦٩٠م يقول فوروتير Furetière [٣] أن كلاسيكي Classique لا تقال إلا في الكتاب الذين تدرس مؤلفاتهم في المدارس أو في أولئك الذين ذاع صيتهم . أما معجم الأكاديمية الفرنسية (١٦٩٤م) [٤] فيعتبر كلاسيكيا الكاتب القديم الذي حقق نجاحا وشهرة في المادة التي عالجها . أرسطو (Aristote) وأفلاطون (Platon) وتيت ليف (Tite-live) هم كتاب كلاسيكيون من وجهة نظر الأكاديمية الفرنسية . ونجد هذا المدلول التاريخي أيضا في معجم ريشليه (١٦٨٠) Richelet [٥] الذي يعتبر كلاسيكيا الكاتب الذي بلغ مرتبة معتبرة ومحترمة يستحق فيها أن يكون قدوة لغيره . شيشرون (Cicéron) وتيرانس (Térence) وهوراس (Horace) وفيرجيل (Virgile) هم الكتاب الكلاسيكيون في نظر ريشليه . ولكن ما يميز هذا الأخير هو أنه أضاف أن الكاتب الكلاسيكي ليس فقط كل من تدرس مؤلفاته في المدارس وإنما هو ذلك الكاتب الذي بلغ حدا من الكمال يثير الإعجاب والتقدير . وهكذا نكون قد ابتعدنا ، بفضل ريشليه ، عن المدلول التاريخي للكلمة الذي كان يقيد بها بالعصور القديمة .

إن هذا المدلول الجمالي الجديد يستند إلى قيم ثابتة ودائمة وهو مدلول موضوعي يقابله في القرن التاسع عشر وبتأثير التيار الرومانسي مدلول ذاتي طرحه أولئك الذين كانوا يريدون محاربة الأدب الجديد ، الأدب المريض : ألم يقل غوته (Goethe) أن الكلاسيكي هو السليم المعافى والرومانسي هو المريض ؟

تطور مفهوم الكلاسيكية

بالفعل ، لقد كان الحادث الحاسم في تطور مفهوم الكلاسيكية هو الحوار بين الرومانسية والكلاسيكية . وما يهمننا هنا هو أن تحول كلمة كلاسيكي من كلمة تعبر عن قيمة إلى كلمة تصف اتجاهها أو نمطا أو فترة أسلوبية يسمح داخلها بوجود اختلافات نوعية كان نقطة حاسمة . وقد أدى ذلك إلى ظهور وعي بوجود تراثين أدبيين جنبا إلى جنب . وقامت مدام دوستال (Madame de Staël) بعرض الثنائية الكلاسيكية - الرومانسية لأول مرة في فرنسا في كتابها «من ألمانيا (١٨١٤م)» .

وحدث في فرنسا تطور مهم نتيجة ذلك الحوار . فقد أعلي من شأن القرن السابع عشر الفرنسي باعتباره العصر الكلاسيكي في مقابل القرن الثامن عشر الذي بدا ، في رأي النقاد ، استمرارا مباشرا للقرن السابع عشر من حيث الأسلوب والنظرية النقدية . ثم جاء القرن التاسع عشر فميز ما بين الفترتين لأسباب لا يصعب فهمها : فقد راق القرن السابع عشر لردة الفعل السياسية والدينية المحافظة بينما حمل فلاسفة القرن الثامن عشر وزر التحضير للثورة الفرنسية والحض عليها . ولكن المسؤولين عن تعريف هذه الايدولوجية لا يستخدمون اصطلاح الكلاسيكية إلا لماما . فكتاب «تاريخ الأدب الفرنسي» لمؤلفه ديزيريه نيزار (Désiré Nisard) الصادر بين عامي ١٨٤٤-١٨٦١م [٦] تسيطر عليه فكرة الروح الفرنسية التي وصلت مرحلة الكمال في القرن السابع عشر بينما بدأ كل شيء بالانحطاط بعد ذلك . وكان نيزار هذا أول من اتهم الرومانسيين بالانحطاط . وهو يرى أن الشعر الفرنسي الحديث تبدو عليه كل علامات الانحطاط التي صادفناها في أواخر العصور الكلاسيكية ، بينما يوازي عصر لويس الرابع عشر عصر أغسطس العظيم .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكلمة التي كانت في الماضي لا تستخدم إلا كصفة أصبحت بفضل الحوار مع الرومانسية تستخدم اسما صار يطلق بشكل منهجي على الكتاب الفرنسيين في عهد لويس الرابع عشر . وأصبحت كلمة كلاسيكي تتضمن بالإضافة إلى مدلولها السابق كقيمة أدبية ، لوما للرومانسية التي اتهمت بالحدث والانهطاط . وتبنى النقاد الفرنسيون المناوؤن للرومانسية الموازنة التي أطلقها غوته (Goethe) بين الرومانسية والكلاسيكية وراحوا يحملون الكلاسيكي كل إطراء وثناء ومديح ويحطون من قيمة التيار الجديد المريض في نظرهم ، مما أساء في نهاية المطاف إلى الأدباء الكلاسيكيين أنفسهم لأن

هذا التحيز الملموس أثار لدى الرومانسيين وغيرهم ردة فعل عنيفة إزاء كل ما يمت لكلاسيكية القرن السابع عشر بصلة.

وإذا مارجعنا إلى معاجم القرن التاسع عشر وجدنا أن معجم إميل ليتريه (Emile Littré)، (١٨٦٣م) [٧] يسوق أربعة تعريفات للكلمة:

- ١- الذي يدرس في الصفوف: كتاب كلاسيكي - كاتب كلاسيكي.
 - ٢- كاتب أو شاعر أو مؤلف كلاسيكي هو الكاتب أو الشاعر أو المؤلف الذي يعتبر أنموذجا يحتذى به.
 - ٣- ما يتعلق بالعصور القديمة اليونانية واللاتينية. نقول اللغات الكلاسيكية أي اليونانية واللاتينية.
 - ٤- كلاسيكي خلافا لرومانسي هو كل من يتقيد بقواعد الانشاء والأسلوب التي وضعها الكتاب الاغريق والرومان، أو الكتاب الكلاسيكيون في القرن السابع عشر.
- تعليقا على المدلول الأخير يحضرني هنا قول ناقد فرنسا الأول سانت بوف Sainte-Beuve: «ليست هناك وصفة نصنع منها كلاسيكيا» أي أن اتباع القواعد كما يقول ليتريه لا يكفي لصنع الكلاسيكي في نظر سانت بوف. ونلاحظ أن ليتريه لم يدخل إلى معجمه كلمة الكلاسيكية Classicisme كمذهب أدبي لأنه وجد فيها اشتقاقا مستقبحا واكتفى بكلمة Classique القديمة التي كانت تفي بمعظم الأغراض. كذلك لم يسمح قاموس الأكاديمية للكلمة الجديدة بالدخول. وقد علق شامفلوري Champfleury المبشر بمصطلح الواقعية الجديدة تعليقا ذكيا في كتابه الواقعية (١٨٥٧م) حين قال:

«إن قوة كلمة كلاسيك حالت دون تبني كلمة Classicisme رغم محاولات البعض ومنهم استندال Stendhal».

ويذكر أن استندال هذا قال ساخرا في كتابه راسين وشكسبير (Racine et Shakespeare) (١٨٢٣م):

«الرومانسية هي فن تقديم الأعمال الأدبية القادرة على استثارة أكبر قدر ممكن من المتعة لدى الأُمم المختلفة بما يسودها الآن من عادات ومعتقدات. أما الكلاسيكية فهي تقدم، على العكس من ذلك، الأدب الذي أعطى أعظم قدر من المتعة لأجدادها».

وقبل أن ننوه إلى المدلولات الجديدة التي طرأت على الكلمة في القرن العشرين نريد أن نشير إلى الدور السلبي الذي لعبته الجامعة الفرنسية بحق الكلاسيكية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فالإعجاب المطلق بكلاسيكية القرن السابع عشر الذي حاول أساتذتها فرضه على الطلاب، وتخوفهم من كل جديد في مجال الأدب، أدى إلى نفور شبه عام من أدباء عظام أمثال كورني وموليير وراسين ولافونتين ولابروير.

إلا أن القرن العشرين جاء ليعيد الأمور إلى نصابها. فقد أخذ القيمون على الكتب المدرسية يفسحون المجال أمام دخول المؤلفات الرومانسية الجديدة إلى الكتب المدرسية من جهة. وكان من شأن النقد الحديث أن لفت اهتمام الأجيال الجديدة إلى أدب القرن السابع عشر وذلك بدراسته المؤلفات الكلاسيكية دراسة موضوعية بعيدة عن كل عاطفة ومواقف مسبقة ثابتة، من جهة أخرى.

واكتسبت كلمة كلاسيك في قرننا الحالي مدلولات جديدة، إلى جانب المدلولات السابقة، نجدها في مختلف المعاجم المتداولة. فمعجم لاروس الكبير [٨] Le Grand Larousse للغة الفرنسية تحدث عن الموسيقى الكلاسيكية وهي الموسيقى التي سادت في الفترة التي سطع فيها نجم جان سيباستيان باخ. كذلك يعتبر المعجم كلاسيكيا كل ما لا يبتعد عن الأعراف السائدة وكل ما اعتدنا على رؤيته والتفكير به وعمله. نقول موقفا كلاسيكيا أو ردة فعل كلاسيكية أي متوقعة. وأصبح للكلمة مترادفات: شائع - مألوف - معهود - تقليدي - وأضاد: شاذ - غير عادي - مستهجن - فريد - أو حديث التي انفرد بها معجم روبير [٩] Le Robert دون غيره. إلا أن الطبقات الحديثة والمعاجم اللاحقة باتت تغفل هذه الكلمة لأنها ليست في الواقع في مكانها. فكلمة كلاسيكي في يومنا هذا يمكن إطلاقها على كل كاتب أو أديب أبدع في نوع أدبي معين ولاقى استحسانا ورواجا سواء كان قديما أو حديثا أو معاصرا.

إن الكلاسيكي هو ذلك الإنسان الذي يستجيب للذوق السائد ويتسم عمله بالتوازن والرصانة. وهذا في رأينا هو جوهر كل كلاسيكية أينما وجدت. فالعمل الكلاسيكي سواء كان أدبيا أو موسيقيا أو فنيا هو عمل يلقي الاستحسان والقبول في كل زمان ومكان. الكلاسيكي في نظرنا ليس قديما ولا محافظا ولا تقليديا ولا اتباعيا. إنه الأديب والموسيقي والفنان الذي يبلغ حد الكمال وتلقى كتاباته ومؤلفاته ولوحاته رواجاً واسعاً

النطاق وتصمد أمام تحديات الزمن . لأن الكلاسيكي لا يكتب لنفسه وإنما للآخرين . بخيل مولير موجود في عصر مولير وفي كل عصر من العصور وكل مكان من الأمكنة . وكذلك بورجوازية النبيل ومريضه بالوهم ونساؤه العلمات المتحذلقات .

كلنا يعرف الشاعر الفرنسي لامارتين (Lamartine) أو سمع عنه ، وكلنا قرأ «بحيره Le lac» في ترجماتها العديدة على الأقل . لامارتين كتب البحيرة لنفسه حملها أحاسيسه ومشاعره وحزنه وأساه على وفاة عشيقته . قطعة رومانسية رائعة . ولكنها كلاسيكية في الوقت نفسه : إنها نموذج للقصيدة الرومانسية الخالدة . من هنا فقط يمكن الحديث عن كلاسيكية الرومانسيين .

يقول سانت بوف :

«الأدب الكلاسيكي لا يشتهي ولا يثن ولا يعرف الضجر أو الملل . يمكن أحيانا أن نذهب بعيدا مع الألم وبفضل الألم ولكن الجمال الحقيقي يبقى أكثر هدوءا .» [١٠]

ويقول بير مورو (Pierre Moreau) لم يتداول عصر مدام دوستال إلا تعريفا واحدا للكلاسيكية وهو الكمال . « [١١] وأعتقد أن هذا التعريف سيبقى صالحا إلى الأزل لأن الكلاسيكية من الثوابت الإنسانية الأزلية .

من الواضح إذن ، يقول روني ويليك (René Wellek) في كتابه مفاهيم نقدية ، أن اصطلاح الكلاسيكية Classicisme اصطلاح من مبتكرات القرن التاسع عشر . وقد ظهر لأول مرة في إيطاليا عام ١٨١٨ م بألمانيا ١٨٢٠ م ثم في فرنسا ١٨٢٢ م وروسيا ١٨٢٣ م وأيرلندا ١٨٣٦ م وهو اصطلاح يشير إلى الجودة والموثوقية وإلى العلاقة بالعصور القديمة . فيما يتعلق بالأدب الفرنسي تشير الكلمة إلى القرن السابع عشر وعلى الأخص النصف الثاني منه . أما بالنسبة للأدب الإنجليزي فترجعنا إلى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر . وفي ألمانيا يقصد بالكلاسيكية السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر . وهذه الآداب تختلف اختلافا واسعا في مادتها وشكلها وفي حقها من الموثوقية والعظمة وحتى في علاقتها بالعصور القديمة . ويمكن القول إن الكلاسيكية الفرنسية والكلاسيكية الألمانية احتفظتا بموثوقية لا وجود لها في الكلاسيكية الإنجليزية . وبدوت . س . إليوت T.S.Eliot محقا حين يقول «ليس في الإنجليزية عصر كلاسيكي ، أو شاعر كلاسيكي» وإن استدرك قائلا بأننا «ما لم نستمتع بأعمال بوب فاننا لن نفهم الشعر الإنجليزي فهما كاملا» .

ويجدر القول أيضا بأن الكلاسيكيتين الفرنسية والألمانية أقرب إلى الأصول اللاتينية من الكلاسيكية الإنجليزية التي هي أقرب إلى الأصول اليونانية بشكل لا يقبل الجدل. ثم إن الكلاسيكية الفرنسية في القرن السابع عشر تنتمي إلى أسلوب الباروك بشكل واضح - باروك هادىء خافت. بينما تبدو الكلاسيكية الإنجليزية شديدة الصلة بعصر التنوير وبالحكمة المستمدة من الخبرة اليومية وبالواقعية. أما الكلاسيكية الألمانية فتتسم بمسحة رومانسية ويغلب عليها الحنين إلى الماضي والطوباوية.

الخاتمة

في الختام نقول إن الكلاسيكية قيم جمالية وفنية ثابتة. سماتها واحدة عبر العصور رغم تعاقب الأجيال والأزمان. تسعى إلى الكمال وتنأى عن الفردية والأنانية. نتاجها يلقي الاستحسان والتقدير في كل وقت لأنها لا تحيد عن تقاليد الأمة وثوابتها الأخلاقية بل تحافظ عليها وتكرسها. إلا أن ظهورها وتطورها يستلزم، على الصعيد العام، استقرارا اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا هو في الحقيقة سبب ديمومتها واستمرارها وازدهارها. وعلى الصعيد الفردي، لا يمكن أن تظهر سمات النزعة الكلاسيكية إلا لدى كتاب عرفوا الاطمئنان والسكينة وراحة البال وعاشوا توازنا إنسانيا عاطفيا بعيدا عن الشكوى والأنين. قد يخف تأثيرها أو يضعف في فترة من الفترات وفي ظل ظروف غير عادية، ولكن ذلك لا يرجع إلى عيب فيها. إن الفرنسيين يستمتعون إلى يومنا هذا بقراءة راسين وكورني ولافونتين وموليير ولابروير رغم القرون الثلاثة التي تفصلهم عنهم. ومن منا نحن العرب لا يستمتع بل ويهتز طربا لسماع أو استظهار أبيات من شعر المتنبي أو البحتري، وفي عصرنا الحديث، أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهم كثير... ؟

المراجع

Hazard, P. *La crise de la conscience européenne*. Paris: Fayard, 1961.

[١]

Bernard, J.M. Sur le sens du classicisme, *Revue critique des Idées et des Livres*, 25

[٢]

août 1910.

Furetière, A. *Dictionnaire Universel contenant tous les mots français, tant vieux [٣]
que modernes, et les termes de toutes les sciences et des arts...*, 3 volumes, La
Haye-Rotterdam, Arnout et Reinier Leers, 1690.

Dictionnaire de l'Académie française, 1re édition, 2 volumes. Paris: J.B.Coignard, [٤]
1694.

Richelet, P. *Dictionnaire français contenant les mots et les choses, et plusieurs [٥]
nouvelles remarques sur la langue française*, 2 parties en 1 volume. Genève: J.H.
Widerhold, 1680.

Nisard, D. *Histoire de la littérature française ancienne et moderne*. Bruxelles: [٦]
Hauman Cattoir et comp., 1837.

Littré, E. *Dictionnaire de la Langue Française*. Paris: Hachette, 4 volumes, 1846- [٧]
1872.

Grand Larousse de la Langue Française, sous la direction de L.Guilbert, R.Lagane, [٨]
G.Niobey, 7 volumes. Paris: Larousse, 1971-1978.

Robert, P. *Dictionnaire Alphabétique et Analytique de la Langue Française, Société [٩]
du Nouveau Littré*, Le Robert, 1967.

Sainte-Beuve. *Qu'est-ce qu'un classique?* Causeries du Lundi, Paris, C. Lévy, T. [١٠]
III, article du 21 octobre 1860.

Moreau, P. *Le classicisme des romantiques*. Paris: Plon, 1932. [١١]

Classicism: Past and Present A Critical, Lexical Approach

M. Nabil Nahhas Homsy

*Associate Professor of French, College of Arts
King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia*

(Received on 9/11/1417; accepted for publication on 1/1/1418 A.H.)

Abstract. The main aim of the present paper is to discuss the various interpretations of "classicism," and to trace the development of its definitions in French dictionaries starting with the 17th century "Dictionnaire de l'Academie Francaise" and ending with the most recent ones. The paper, furthermore, focuses on the various influences that have helped develop the meaning of "classicism" particularly in the romantic era.

The paper is divided into two main parts: part one tackles the old meaning of "classicism", and records the semantic development of the term until the end of the 19th century. Part two spotlights the modern meanings that the word has acquired in modern dictionaries, and the way it is used by a number of well known literary critics.

The paper concludes that classicism is not a school as much as a trend with distinct characteristics hinging around rationalism and traditionalism. However, this does not imply that classicism is simply confined to the old and the traditional, but like romanticism, it embraces the fundamentals of human thought as a whole. Needless to say that there have always been, and will always be, literary figures who would give priority to the mind over emotion, or the other way round. But the author argues that maintaining a happy medium between the two values would certainly be a big stride towards perfection.